شيء من فلسفة التاريخ

على شاطىء طفولة نابليون بونابرت

بقلم الدكتور احمد فريد رفاعي

١

البحث في حياة نبوليون وجالي نبوغه وآثار حروبه وفتوحاته وكل ما يتعلق بعبقريته من طفولته الى وفاته موضوع لا تعتق جدته ولا تضعف عناية الجمهور به كتابا وقراء . لذلك يجد القراء في هذا الجزء من المقتطف مقالتين عن نبوليون احداهما تتناول مرضه الاخير ووفاته، والاخرى طفولته وأثرها في حياته . وقد اغتنم الدكتور رفاعي هذه الفرصة ليحدث القراء في مطلع مقاله عن « طفولة نبوليون » حديثاً عن فلسفة التاريخ وكتابة [illegible] [illegible] لكثرة ما يظهر في اللغات الغربية كل سنة من كتب السير التي يتنشر بينها ما هو ادب راق او تاريخ محض

شدَّ ما يخشى المؤرخ من استهواءات افتتانه بالشخصية التي يكبُّ على درسها . ويجب ان نعترف ان المؤرخ مع كل ما يسمو به عقله من تقدير الحق والعدالة ، ومع كل ما يأخذ به نفسه من الأمانة والنزاهة ، ومع كل رياضته لأحاسيسه ونزعاته لتلابس الاعتدال وتزامل الانصاف — فانه معرض في الأغلب الأرجح لاستهواءات نفسه ، واستهواءات المادة ، فيروح جنديًّا متحمساً لقائده ، ويمضي المكافح المستميت في سبيل انتصار زعيمه ، بأثر الفكرة والعقيدة وبعض الأعيان ، او على الأقل بأثر المعاشرة والزمالة والصداقة

المؤرخ انسان . والعالم انسان . وحياة الانسان حب وبغض ، ميل ونفور ، وفاق وخصام ، صلة وقطيعة ، نور وظلام ، أفراح وأتراح ، برد وضرام ، صدق وكذب ، حق وباطل ، صواب وأغلوطة . . . هي سلسلة من النغمات المترادفات . هي قاموس من المترادفات المتناقضات ! !

المؤرخ انسان . هو عرضة — ولا نقول اسير . . . ! ! — لاحساساته ونزعاته ، ولأغاليطه وحماساته ، ورو[illegible] [illegible]جياته ، بيد انه [illegible] [illegible] ومصور للحقيقة المرئية إن زاد طولاً او عرضاً ، او نقص حجماً او حجماً فهو عابث كاريكاتوري ، وناسخ هزلي ، لا مصور حقيقي !

نحن في عصر مادي . او هو عصر علمي واقعي . او هو عصر اجلاس الكل على منضدة واحدة ومساواة من طينة واحدة . او هو عصر يكفر بالاستحالات كفر نابليون بها . او هو عصر السوبرمان

الذي يرى في قصه اهلية للقيام بما قامت به ابطال الماضي واتصاف آلهة الماضي . او هو عصر يرى من واجبه وحقه ، وبما هو في حوزته ومتناوله ، وبما يجري في جسمه ودمه ، ان يعلم كل شيء . من خطأ وصواب . من جليل وضئيل . من حسنات وهنات . من حياة ابطاله وقادته . لأنهم جزء من طينته ، وقبس من طبيعته ، وشركاء له في انسانيته

تحرر العقل ، او هو آخذ يتوقل في معارج التحرر من عبوديات الامتيازات والفوارق، وراح ينظر في تفكير ... — والتفكير اول مراتب التشكك — الى عوالم الاحتكارات والانفرادات والتألهات في الزعامة وغير الزعامة . ثم راح يتساءل في ضوء المعرفة والحقيقة وبيده مصباح التحليل وتكأة المنطق : الأبطال من دم ولحم مثلي . هم آدميون من طينتي وعجينتي . وربما كانت ظروف العلم الحاضر وفرص الحياة الحاضرة تؤاتيني بسدد لم تتح لهم، وتسلحني بإمدادات لم تكن في حوزتهم . والأبطال من دم ولحم مثلي . هم معرضون للخطأ كما انا معرض له ، وموفقون الى الصواب كما انا موفق اليه . ثم ان ظروف التعليم ، وحالة الاجتماع ، ودرجة المدنية ، ومختلف اعتبارات العادة والخلق والبيئة والجيل . هذه كلها تحمل في طياتها ، بحذافيرها مجتمعة او منفردة اغاليط او ما يعتبر اغاليط في جيلنا الحاضر وفهمنا للأشياء بالنظر الحاضر والذوق الحاضر

تحرر العقل ، او هو آخذ يتوقل في معارج التحرر ، وبدأ يستشرف بنظرة الانسان المثقف، السوبرمان ، النصف آله ، على جميع المناطق التي كانت منذ عهد قريب تعتبر مناطق خطر .... اقاليم خطر خارجة عن الحدود ، من نظريات ومعتقدات . ومن عادات واديان . ثم كان من وراء هذه النظرة التشكوية المتشرفة ان اخترقت غلاف الرشاشة ووصلت الى المسحوق .... والنظار لا يقصر في فحصه والكيماوي لا يرحم في تحليله وان اخطأ احدهما لم يحجز الثاني ....

تحرر العقل ، او هو آخذ يتوقل في معارج التحرر ، وفي تحرره انطلاق ، وفي انطلاقه طيران الى كل مجال ، وتحليق في كل جو ، فوق قلاع القياصرة وقصور الملوك . فوق الحقوق المقدسة سواء كانت من السماء او من الشعب . فوق مدافن الزعماء امواتاً ومجتمعات القادة احياء . فوق التاريخ والآثار والمتاحف . فوق الأطلال الدارسات والعوالم الماضيات . فوق الماضي والحاضر . فوق الخطأ والصواب . فوق التحزب لدين او نبي او ولي او زعيم . فوق «البابا» و «لوثر» و «كالفن» و «اراسمس» و «سنت فرنسس» و «سنت دومنيك» . فوق الجميع لأنه وليد الحرية والاخاء والمساواة

٢

في يناير سنة ١٨٣٤ كتب المؤرخ الانجليزي اللورد ماكولي كلمة متزنة لمناسبة ظهور المجلدين اللذين وضعهما ترنسيس تاكري عام ١٨٢٧ عن ارل أف شاتام وليم بت في ثنايا تلك الكلمة المتزنة شيء يعنينا . هو تعريف لنوع من المرض شديد الخطر على التاريخ وكتابة التاريخ . ويجب ان نذكره في التو واللحظة ليكون نصب عيننا بمثابة « منارة » أو « فنارة » للاهتداء والاسترشاد ونحن آخذون في تدوين مذكراتنا عن حداثة نابليون

اما المرض ، الذي نسأل الله السلامة منهُ ، فهو ما يسمى « بلويس بوزوليانا » *Lues Boswelliana* واما تعريفه فهو مرض الافتتان . . . . . يعني ماذا ؟

يجوز ان يكون الزعيم الذي تدرس حياته ، وتحلل شخصهُ ، وتتفهم عصره قد عبث اثناء طفولته ببيت مقفى منظوم ، ويجوز ان يكون قد عبث بلعبة ما ، اوكان ثرثاراً ، او كان . . . أو كان . . . . في حادثة او حادثتين ، وموقف او موقفين — فالمؤرخ المصاب بسرطان مرض الافتتان ، والمريض بداء « اللويس بوزوليانا » العضال ، يأبى في تعنت وعناد وتعصب نظر واستبداد فكر ، الا ان تؤمن انت بان ذلك البيت المقفى المنظوم الذي كان يغرد به معبوده هو السحر الحلال . هو تحفة الناظر ، ومتعة الخاطر . هو السجع والجناس مبنى في حكمة لقمان معنى . اما لعبتهُ فشجاعة وبراز ، واما ثرثرتهُ فبلاغة واعجاز ، واما سخطه فارصاص ، واما طوبه فدرة الغواص !!

[illegible] ان تؤمن [illegible] لا يكون [illegible] تسوقه ، وفهمك كفهمه ، ولماذا لا تكون صديقاً لصديقه ومحبًّا لحبيبه وان لم تكن ثمت من صلة تعارف بينكما من قبل ؟

٣

ولو انهُ قد تحرر العقل ، أو هو آخذ يتوقل في معارج التحرر ، وبدأ الانسان — وليد الحرية والاخاء والمساواة — يثور على القديم من تقاليد ومعتقدات وعيا كل وديانات فانهُ سيثور على جديده يوم يضحي الجديد قديماً والقديم جديداً . لأن الاسباب متصلة والمعاني متضمنة بلا توقف ولا عطلات . ولان السلسلة مستمرة لا انفصام لها ولا انقطاع . ولان العقل الذي ينقد ، وينفذ في نقده الى الصميم — ان ظالماً او عادلاً ، ان مبطلاً او محقًّا — لم ينقد ساخراً او يتهاتف مستهزئاً الا لانهُ قد كوّن في حيز من تصوره العقلي مثله الاعلى ، بطله المحبوب ، امله ومستقبله ، شخصه وذاته !!

فهو وان تحرر او اخذ يتوغل في معارج التحرر ، واصبح كل شيء في نظره مراغاً مستزاداً ، وفي حوزته مذالاً ميسّراً حتى انه تهجم بعضهم لتشريح ، لم يكن يجسر على تحديق النظر فيه ، وحتى بدأ يسمي الافتان بداء « اللويس بوزوليتا » وحتى انه احتمى بصاحبة الجلالة « الصحافة » ، التي كانت اسيرة سجينة ، وحتى أحنى هامته للرأي العام أن كارهاً أو راضياً . وقد كان الرأي من قبل لاصحاب السوح او الالقاب وحائزي الاقطاعات من تلاع وقلاع وبقاع ، وحتى . . . . وحتى . . . . الى ما لا نهاية له ولا حد . بيد انه لا يزال الانسان انساناً ، ولا يزال متخذاً من محوتيه ومعاشريه من الابطال وشتى الصور والقراءات مثله العليا . ولا يزال الانسان كما كان امام الجاحظ ينظر الى تلك الآثار والمؤلفات نظرة تقدير . بل لا يزال الانسان المنطقي العاقل لا يرتاح لمن يهدم ارتياحه لمن يبني ، ثم لا يزال الانسان منذ القديم يتبرم بمن يكيل النقد ويكثر من التجريح

ولماذا نذهب في التحليل بعيداً وامامنا من المدرسة القديمة الجاحظ للرد على منتقصي أثره ، وخلاصة عقله ، وهيكل تكوينه وشخصه فقال ما يجدر ان نذكره في أنفسنا على الاقل عند درسنا لكل عظيم او نقدنا لكل جليل حين نذكر « اللويس بوزوليتا » في نفس اللحظة وفي ثيارة ومضة التفكير

قال الجاحظ : « ثم قصدتَ الى كتابي هذا بالتصغير لقدره ، والتهجين لنظمه ، والاعتراض على لفظه ، والتحقير لمعانيه ، فزريت على نحته وسبكه ، كما زريت على معناه ولفظه ، ثم طعنت في الغرض الذي اليه [illegible] ، وهذا كتاب معناه [illegible] من اسمه ، وحقيقته آنق من لفظه ، هو كتاب يحتاج اليه المتوسط العامي ، كما يحتاج اليه العالم الخاصي ، ويحتاج اليه الرّيّض ، كما يحتاج اليه الحاذق

« اما الرّيّضُ فللتعلم والدُّربة ، وللترتيب والرياضة ، وللتمرين وتمكين العادة ، إذ كان جليله يتقدّم دقيقه ، وإذ كانت مقدّماته مرتّبة ، وطبقات معانيه منزّلة ؛ واما الحاذق فلكفاية المؤونة ، ولأن كل من التقط كتاباً جامعاً ، وباباً من أمهات العلم مجموعاً كان له غُنمه ، وعلى مؤلفه غُرمه ؛ وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كدّه ، مع تعرضه لمطاعن البغاة ، ولاعتراض المنافسين ، ومع عرضه عقله المكدودَ على العقول الفارغة ، ومعانيه على الجهابذة ، وتحكيمه فيه المتأولين والحَسَدة ، ومتى ظفر بمثله صاحب علم او هجم عليه طالب فقه ، وهو وادع رافه ، ونشيط جام ، ومؤلفه متعب مكدود فقد كُفي مؤونة جمعه ، وخزنه وتتبعه ، وطلبه ، واغناه ذلك عن طول التفكير ، واستنفاد العمر وفَلِّ الحدّ ، وأدرك اقصى حاجته ، وهو مجتمع القوة ؛ وعلى انّ له عند ذلك

ان يجعل هجومه ضرباً من التوفيق ، وظفره به باباً من التسديد »

وبعد فان كلمات الجاحظ في الذود عن خلاصة عقله ، ودفاعه عن هيكل تكوينه وشخصه ، وبيان خطر أثره وما له من نفع للمريض والناقد ، وما له من فائدة للمؤمن والجاحد . . . . هذه الكلمات الحكيمة خليقة بذكرك عند دراستك لكل عظيم ، وعند تحدثك عن اخلاقه ومناقبه ، ومآثره ومساويه ولسنا نمنعك من حرية عقلك ، ولا نحول بينك وبين التحليق في كل الاجواء . ولسنا نحظر عليك حقنة الحصانة بمصل اصدائك ضد مرض « اللوبس بوزوليانا »

— ٤ —

نعلم ان « كارلو ماريادو بونابارت » الضيق الارزاق ، الطيب الاعراق ، تزوج من « ماريا لتزيا راموليتو » الضيقة الارزاق ، الطيبة الاعراق . ويظهر ان مهبطات الفقر مثل مرتفعات الغنى في استمرار السلالة واندفاعها إما لأسفل المنحدرات وإما لأعلى المنحدرات . فتجد ان الرجل المكثار من النسل والذرية والمرأة المدرة الولود كلاهما فقير مجدب ، وكلاهما عديم معتر ، إلا فيما شذ وندر . هذه هي القاعدة . ولعل هذه القاعدة المناقضة للظرف والمادة موانية في الوقت نفسه لعبث الاقدار وسخريتها من حيث اعطاؤها بالبنين بقدر حرمانها بالشيال . ولعلها في عبثها هذا او ما نسميه بعبث وسخرية لها حكمة تدق عن الاذهان وتسمو دون الخيال من عدل ونصفة في توزيع لذاذات الدنيا من مباهج وزينات وحطام وثروات ، وبنين وبنات

ولعلم انه قد عاش لتلك المرأة المدرة الولود سبعة اولاد حين اوصت بما تركت من مال نالته اثناء بسمة الدهر لابنها نابليون . وقلما يبسم الدهر بسمة سمحة وضاءة كتلك البسمة لا لمصر في مجدها ، ولا لليونان في عبقريتها ، ولا للرومان في سعة رقعتها . . . . . لقد كانت بسمته قهقهة عالية من قلب مفراح طروب ووجه جميل صبوح وفم فتان يسيل رقة وشهداً . وإلا فكيف تسنى لهذه الام التي نعلم من ضيقها وعوزها ما نعلم ان تترك حين وفاتها في مرسيليا عام ١٨٢٢ اي حوالي سنة واحدة بعد وفاة ولدها البطل العظيم في سنت هيلانه — لكل من اولادها الستة الاحياء مليوني ريال ولأخيها الكاردينال « فش » قصراً فخماً حوى من الرياش والاثاث والتماثيل والتهاويل مايعتبر من أقيم التحف في اوربا . . . !

ولكن هذه الايام التي يبسم الدهر لها بسمة صادقة عن طيب قلب لا عن رياء او مجاملة وقليلاً ما يبسم الدهر تلك البسمة لانه بطبعه متجهم عبوس ، ولانه بنزعته قُلّب حُوّل ، كانت هي الاخرى قلادة بين النساء . واليك قصة تصور لك تلك الام التي خاطبها « باؤلي »

في عام ١٧٩٣ « بكورنيا » راماً بذلك الى ان هذه السيدة الصبوح الحازمة الدؤوبة ساكنة القرى لا الحواضر ، خليقة أن تدر بنسل من الابطال

بعد ان تولى نابليون سدة الملك وتسربل بلباسه ، وامسك بصولجانه ، قابل الام في حدائق سنت كلود ، وكان محوطاً بالحاشية والبطانة فمد نابليون يده الى امه لتقبلها ولا نستطيع ان نحكم ان كان قد مدها جاداً ام مازحاً ام نصف جاد أو عابث وإنما يحدثنا الاستاذ « ابوت » ان الام هي الاخرى مدت يدها قائلة لولدها في رزانة واتئاد :

« ليس هكذا ياولدي . إنه لمن واجبك انت ان تقبل يد من وهبتك الحياة ؟ »

هذه الام الرءوم العظيمة ، التي أهبت الحياة بطلنا العظيم ، كانت محبوبة مرموقة من ولدها العظيم الذي يحدثنا عنها في مذكراته : « اضطرت والدتي التي تركت بلا مرشد ولا معين ان تأخذ على عاتقها الاعباء والاثقال . وكان العمل مما يؤودها ويبهظها ، ولكنها كانت تدبر كل شيء ، وتحتاط لكل شيء ، بحصافة لم تكن لتنتظر من بنات جنسها ، ولا من شريكات عصرها . . .

« إيه ! ما اعظمها من امرأة ! اين تنظر مثلها واترابها . لقد كانت تحدب علينا في تقلقل بلبال لا يدانيه في عطفه شيء

« كانت تاني في النهاية ولا تشجع كل عاطفة سافلة وكل حاسية غير نبيلة . . . وما مثبت إلاَّ بكل عظيم وسام عاملة على غرسه في عقولنا الطفلة . لقد كانت تمقت الكذب وما كانت لتتسامح في اي عمل من اعمال عدم الطاعة مهما كان طفيفاً ، وما كانت تتهاون في مقطع من سقطات [illegible]

له من نفسها لانها تحملت الكل ، وكانت شجاعة ازاء الكل

« لقد كان لمثلها نشاط الرجل ممزوجاً في حنان الام ورقتها

هذه الام الرءوم العظيمة ، التي أهبت الحياة بطلنا العظيم ، كانت محبوبة مرموقة من ولدها العظيم فالتاريخ يحدثنا في اكثر من شاهد بأنها كانت موضع حبه العظيم ، واحترامه العظيم . . . . وكم من مرة اعترف في صراحة وجلاء بأن الاسرة جماء مدينة لتنشئتها لهم صبياً وخلقيًّا تلك التنشئة التي اعدتهم لتسنم ذروة السلطان في مستقبل ايامهم . . ويحدثنا الاستاذ ابوت في هذا الصدد : كان نابليون عميق التأثر في احاسيسه ازاء تلك الديون فطالما كان يقول : « ان من رأيي ان مستقبل سيرة الطفل من حسن او قبح يتوقف بأكمله على امه » . . . ولقد كان من اولى صنائعه حينما توقل سلطانه احاط والدته بكل ما تواتيه الثروة من رغد ورفاه . وقد بادر في الثو واللحظة في همة ونشاط حينما اشفى على

وأس الحكومة الفرنسية الى انشاء مدارس لتعليم البنات ، مقرراً أن فرنسا في جهودها لاصلاح نسلها وترقية جيلها لفي أمس حاجة الى فضليات الامهات »

هذه الأم الرؤوم العظيمة التي احيت للحياة بطلنا العظيم ، كانت هي ربة البيت لا الزوج. فقد حدثنا نابليون عنها في معرض كلامه عن أخيه يوسف بقوله : « كان اخي يوسف هو الشخص الذي طالما اختصم معه ، فكان يضربني ويعض ويمتهن . وكنت استبق بالشكوى منه قبل أن اعطيه الوقت ليثوب الى نفسه من بليته وذلك لأنه لزام عليّ ان أكون يقظان متنبهاً لئلا تبادر والدتنا الى كبح جماحي في مزاحي الحربي فهي لن تقف مكتوفة الايدي ازاء نزواتي هذه . فرقتها تخالفها الصرامة وبقدر ما تكافىء تعاقب سيان عندها الأمران فلن يفلت من قصاصها شيء من حسن وسيء . اما والدي فهو وأن كان رجل عقل بيد انه مكب بأجمعه على لذته بدلاً من أن يصيب طفولتنا بقسط كبير من عنايته . وقد يحاول في بعض الأحايين ان يشفع لنا في بعض أغاليطنا فتقول له الأم « دعهم وشأنهم فليس الأمر من عملك أنت ، وأنما من واجبي انا ان انظر فيما يجدي عليهم » . والواقع انها كانت تعنى بملاحظتنا بشكل لا مثيل له مما يقض مضجعها ويقلق بلبالها . فكل عاطفة دنيئة او هوى غير كريم يلقى من عدم تشجيعها مايقله ويمحوه. ولقد اجهدت نفسها في ان لا يغرس في عقولنا الطفلة اللدنة الا ما هو حسن وما هو سام . وكانت تمقت الكذب ويثير ثائرها التمرد . وما كانت تتهاون في شيء من سقطاتنا . . أ هـ »

هذه الأم الرؤوم العظيمة ، التي احيت للحياة بطلنا العظيم ، والتي خلقت لتكون من خير المربيات اليقظات ، والأمهات الحدبات الشديدات ، والبارات الصارمات، لم يذكرها نابليون في كل موقف من مواقفه ، وفي كل كلمة من احاديثه ، الا مع التجلة والمودة الصادقة والتقدير الكبير وما كان ليسمح لمخلوق أياً كان لينال منها وينتقص . وقد قال عنها : « امي الفائقة القدر امرأة شجاعة وموهبة عظيمة .... أنها لقادرة ان تفعل كل شيء في سبيلي » ثم عزا كل ما وصل اليه في حياته من مرتبة سامية وجاه عريض الى جهودها ويقظها وتنشئتها فقال « اني مدين لأمي — لنشأتها الحسنة ومثلها الاعلى — في نجاحي وفي كل ما اديت من عمل كبير » ثم قال « امي امرأة سامية ، امرأة كفاءة وبسالة »

[التتمة في الجزء القادم]